

الطفل والصراع الثقافي في القصص القصيرة

The Child and the Cultural conflict within Short Stories

قادري عبد الرحمان

جامعة سيدي بلعباس/الجزائر (kadriabdel22@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2024/07/29؛ تاريخ القبول : 2025/04/24 ؛ تاريخ النشر : 2024/05/20

Abstract

الملخص

This article deals with the conflict between social values within short stories, which are translated from foreign language. Although short literary texts are so appropriate in the field of teaching, especially for teaching foreign, languages but they may represent a source of negative views and prejudices. Such situation leads to a large gap between the child as learner and the reality. What are the possible didactical techniques that could help us to establish better cultural environment for children where they could communicate positively and freely without misunderstanding.

تتناول هذه المقالة الصراع بين القيم الاجتماعية ضمن القصص القصيرة المترجمة من لغة أجنبية. فعلى الرغم من أن النصوص الأدبية القصيرة مناسبة جداً في مجال التدريس، خاصة لتعليم اللغات الأجنبية، إلا أنها قد تمثل مصدراً للآراء السلبية والأحكام المسبقة. مثل هذا الموقف يؤدي إلى فجوة كبيرة بين الطفل كمتعلم والواقع. ما هي الأساليب التعليمية الممكنة التي يمكن أن تساعدنا في إنشاء بيئة ثقافية أفضل للأطفال حيث يمكنهم التواصل بشكل إيجابي وحر دون سوء تفاهم أو حواجز ثقافية.

Keywords: child literature, short story, Didactics of Literature, Interculturality, National Literature.

كلمات مفتاحية: أدب الطفل، القصة القصيرة، تعليمية الأدب، الثقافة، الأدب الوطني

1- مقدمة:

يمثل النص الأدبي القصير بأنماطه المختلفة خاصة القصة القصيرة منها رافدا مهما في تشكيل وعي الطفل بمحيطه الاجتماعي والطبيعي وفي اكتساب لغته وقيم مجتمعه التي تتسم بخصوصيات مميزة. وكيفما كانت نشأة النصوص السردية القصيرة وتطورها تاريخيا من مجتمع لآخر "فإنها ظلت تمثل جانبا مهما في عالم الاتصال الشفوي والكتابي". (Cinzia M., 2003, P.4)

غير أن كثيرا مما يروى للطفل من قصص أو يتتبع على التلفاز أو الانترنت أو يقرأ من قصص قصيرة قد يتضمن قيما متعارضة تماما مع منظومته الثقافية، وقد يصل هذا التعارض أحيانا إلى حد التناقض الصارخ الذي قد تتعكس بعض آثاره السلبية على حياة الطفل، فما هي تجليات ذلك التعارض الثقافي؟ وما طبيعة الآثار التي يتركها ذلك التصادم بين القيم الخاصة بمجتمع الطفل وبين ما يناقضها مما هو واد وأجنبي؟ وكيف يمكن توظيف النصوص الأدبية القصيرة في تدريس الأطفال بطريقة تحقق التوازن النفسي وتمكن الطفل عبر مراحل متدرجة من اكتشاف الآخر وتقبله ليصبح أكثر وعيا بالتباين والتنوع الثقافي وأكثر اقتناعا وتمسكا بالقيم التي تشكل جانبا مهما من هويته الاجتماعية والثقافية؟

يمكن تحديد التعارض أولا انطلاقا من النص الأدبي الأجنبي وذلك بتحديد العناصر والمضامين غير المتجانسة بين نسقين ثقافيين وهذا من خلال مقارنة مفصلة لكل ما يتعارض مع ثقافة المتلقي وبالمقابل يمكن تحديد ما ينسجم مع ثقافته الخاصة ولتبسيط الفكرة يجدر بنا أن نضرب أمثلة بسيطة، لنفترض أنني دخلت مكتبة لاختيار قصتين قصيرتين مترجمتين لتلميذين عمرهما على التوالي 9 و14 سنة وتقرر لدي بعد ان تم الاختيار أن أقدم لكل منهما قصة على الترتيب " الساحرة الطيبة " و"الصليب الحديدي" هذه الأخيرة هي للكاتب هاينر ميلر.

يبدو من خلال العنوانين أن إشكالا سيطرح بالنسبة لكلا النصين. إذ من الأرجح أن يتساءل التلميذ الأول: كيف يمكن للساحرة أن تكون طيبة؟ بينما سيتساءل الثاني خاصة بعد قراءة القصة أو جزء منها عن رمزية الصليب وجدوى اختياره كموضوع لقصة يقصد فيها البطل الصليب ويتمسك به إلى أن يرميه في النهاية بعد أن قرر الانتحار. كيف يمكن التعامل مع هذه الموضوعات من الناحية

البيداغوجية وما هي الطريقة المثلى التي تسمح باستثمار النص الأدبي وتوظيفه لصالح المتعلم؟ ويتعلق الأمر ببيئة ثقافية (إسلامية، عربية) تختلف تماما عن بيئة الكاتب كيف ما كانت والتي حسب المثاليين السابقين بيئة (أوربية، مسيحية). فضلا عن وجود فوارق أخرى جغرافية وتاريخية ومنها أيضا الفارق الزمني بين فترة كتابة النص التي تكون محددة نسبيا وبين فترة القراءة التي يمكن اعتبارها مفتوحة.

ينبغي الانطلاق أولا من النص ذاته، حيث يكشف التحليل الدقيق لنص أدبي كالقصة القصيرة عن وجود مجال يخص القيم الثقافية للمرسل أو الكاتب يتعارض تماما مع مجال القيم والمبادئ الثقافية الخاصة بالمتلقي أو القارئ. وعن وجود مجال تتداخل بينهما قد يصل أحيانا إلى درجة التطابق التام. بحيث كلما اتسعت دائرة الاختلاف كلما صار من الصعب على المتلقي تقبل ما يقدمه النص على جميع مستوياته المعرفية والمنهجية والتأملية. وعلى هذا الأساس فإن معايير اختيار القصة بالنسبة للمتعلمين خاصة الأطفال يجب ان تكون محددة وواضحة وينبغي أن ينتبه المربون إلى خطورة أن يترك ذلك سدى. يمكن أن تحدد تلك المعايير استنادا إلى طبيعة النص الأدبي ذاته فتحليل هذا الأخير يسمح لنا أن نحدد للمتعلم الموضوع الأنسب. ويكشف لنا التحليل عن مستويات تعليمية مميزة للقصة القصيرة تتمثل خاصة فيما يلي:

المستوى المعرفي: يتعلق الأمر بطبيعة المعلومات الجديدة وحجمها بالنسبة للمتعلم، كيف ما كانت طبيعة هذه المعلومات: لغوية، تاريخية، جغرافية، اجتماعية، سياسية، دينية أو غير ذلك. ومن الواضح أنه علينا أن نراعي عند اختيارنا للنص حجم المعلومات وبعدها أو قربها بالنسبة لثقافة القارئ وخبرته ولمستواه التعليمي، وقيمة تلك المعلومات أو جدواها بالنسبة لحاضره ومستقبله. وينبغي الإشارة إلى وجود نمطين منها في المجال الأدبي، معلومات افتراضية تقتضيها طبيعة النص الأدبي باعتباره مجالا خياليا مفتوحا، ومعلومات حقيقية ترتبط بواقع معين أو سياق زمني محدد. وتراعى هنا الأهداف المرجوة والقيم المنشودة من القصة أكثر مما تراعي درجة القرب أو البعد عن الحقيقة الواقعية، على ألا يعني ذلك إمكانية الجنوح التام عن الواقع أو التعارض معه مما يعقد الفهم لدى الطفل كما هو الحال في بعض القصص.

المستوى الفني: يخص الناحية الجمالية للنص، أي الصور البيانية والمحسنات البلاغية وجمالية السرد، ويكون تذوق القارئ لجمالية النص نسبيا، حسب قربه أو بعده من اللغة التي كتب بها النص الأصلي أي حسب اتقانه لها ورغبته في تعلمها وطبيعة الحوافز التي تسند هذه الرغبة. ويتوقف الأمر كذلك على الصياغة الأدبية للنص المترجم والتي تظل مشروطة بمستوى معرفة المترجم بدقائق وأسرار هذه اللغة أو تلك، هذا فضلا عن خبرته وعمق تجربته. ومن الملاحظ أن النص الأدبي كغيره من النصوص التي تترجم من لغة إلى أخرى قد يحتفظ أكثر بمضمونه المعرفي وبمخزونه الفني إذا تم إشراك أكثر من مترجم، حيث يكون مثلا أحدهم أكثر اطلاعا على إحدى اللغتين والقصد هنا أيضا على إحدى الثقافتين مقارنة بدرجة اطلاعه على الأخرى. وهوما يحصل واقعا في الغالب إذ من المتعذر أن تكون درايته باللغتين تامة ومتماثلة.

المستوى المنهجي: يرتبط بطريقة السرد ويتسلسل الأحداث في القصة ومدى خضوع النص ككل لترتيب وترابط معينين، بحيث يشكل النص في الأخير كلا ذا معنى. وإذا كان من الممكن للكاتب أن يرتب أفكار النص الأدبي وفق خطة فنية محكمة فإن حيك تلك الخطة ينبغي ان يراعي فيه عمر المتلقي ومستواه التعليمي وقدرته على استيعاب التزامن والتعاقب فيما يحصل من وقائع ضمن القصة. وبأسلوب آخر فإن أي تعقيد في تشكيل وترتيب الأحداث سيؤثر سلبا وبشكل مباشر على مستوى الفهم.

المستوى العاطفي: يتمثل بما تنثيره القصة من مشاعر السرور والرضى وحالة التوافق النفسي حتى في بعض الحالات التي تكون بعض أحداثها بشعة أو مرعبة ذلك لكونها-على حد وصف كانط للفن- تنقضى التعبير الجميل عن الأشياء والأحداث وليست تعبيراً عن الأشياء الجميلة. هذا بطبيعة مع ضرورة مراعاة سن المتعلم ونموه العاطفي وأوضاعه النفسية والاجتماعية لئلا يكون مضمون القصة كابوسا مرعبا يهدد صحة الطفل نفسيا.

إن النص الأدبي باعتباره عملا فنيا يمارس تأثيرا سحريا بالغا على المتلقي وكأنه " يتأمل لوحة فنية رائعة فيغمره فرح عارم يوقظ روحه من سبات العادة فتستجيب لأي تصور حقيقي عن الجمال " (Miss

Sara Cone Bryant, 1926,P.27)

وتزداد شدة ذلك التأثير العاطفي تبعا للشروط المؤثرة التي ينطوي عليها النص الأدبي وحسب الطريقة التي يتم بها التلقي. إن القصة القصيرة يمكنها في هذا السياق أن تثير لدى المتلقي كثيرا من المشاعر الإيجابية كالثقة في النفس والاقدام والاستعداد لمواجهة المواقف وحب المغامرة والتخطيط والرغبة في تحقيق الذات والتعبير عنها بأساليب مبتكرة.

المستوى التأملي: يخص الأثر الذي نزيده من النص على المستوى الفكري، أي إلى أي مدى يمكن للنص الأدبي كالقصة القصيرة أن يفتح المجال لإثارة وتفعيل دور الوظائف الذهنية كالتفكير والتذكر والتخيل والعمليات العقلية كالتحليل والتركيب والاختزال والتجريد لدى المتعلم، فينمي بذلك قدرته على الإبداع. إن النص الأدبي بما في ذلك القصير منه ليس مجرد سرد متميز لأحداث واقعية أو خيالية وإنما تعبير عن تصور أو تشخيص لواقع يراد به التعبير عن نظرة خاصة اتجاه أوضاع معينة، وبالتالي اتجاه الحياة والوجود الإنساني بأبعاده المختلفة، ومن هنا لا ينبغي ان يغفل المضمون الفلسفي لهذا النص.

المستوى القيمي: يدور حول القيم الأخلاقية والثقافية الموجهة للقصة القصيرة والتي قد تحمل بعدا إيجابيا مما يجعلها مرغوبا فيها كالتضحية، الكرم، الصبر، التواضع، التسامح، الوفاء والإيثار. أو تلك التي تحمل بعدا سلبيا فتكون مرغوبا عنها كالأنانية، البخل، الجزع، التناذب، العدا، الغدر والشح. ويمكن الحديث هنا عن قيم ثقافية متنوعة، قد ترتبط بالقيم الأخلاقية، كالقيم الدينية والسياسية والتي تظهر أكثر مدى التباعد أو التقارب بين ثقافتين أو أكثر. والأمثلة في هذا السياق كثيرة، إذ من المؤسف أن تعبر بعض قصص الأطفال عن موقف عنصري اتجاه عرق أو ثقافة معينة وكمثال لذلك سلسلة المكتبة الخضراء الفرنسية الموجهة للناشئة والتي ترتبط كل منها بمنطقة ما من العالم لتصف من خلال أحداث القصة بعض أخلاق ساكنيها. وما يراد فهمه من وراء السطور أن الفرنسي في إحدى هذه القصص يوصف بالصبر والتضحية والوفاء، بل إن كلب بطل القصة يوصف هو الآخر بذلك. وضمن قصة أخرى يوصف الصيني بالحكمة وحسن التقدير أما العربي فينعت في قصة ثالثة بالمكر والغدر والسرقة والتطرف. يحصل هذا في بعض الكتابات بالرغم من تأكيد النقاد والمختصين في تعليمية الأدب على ضرورة تجنب هذا التمييز غير المبرر أخلاقيا وقانونيا والذي ينسب لأبطال القصة ما يبدو أنه يفصل عرقا عن غيره من الأعراق بشكل يظهر التعارض التام بين الخصائص الأخلاقية

والسلوكية والجسمية ويعبر في نفس الوقت عن التسامي والتعالى المفرط لعرق ما، بل ينبغي أن يظهر للطفل ضمن النص الأدبي أن الآخرين المنتمين لثقافات أجنبية يتمتعون بكثير من الصفات المشابهة لأفراد مجتمعه ويواجهون مواقف متماثلة ويسلكون حيالها ردود أفعال متقاربة. (إسماعيل الحاج موسى إسماعيل، 1999، ص 11).

على أساس هذه المستويات يمكن أن نحدد الوظائف البيداغوجية الأساسية للقصة القصيرة، أي أن هذه الأخيرة يراد بها اكتساب معلومات معينة وتشكيل متدرج لأسلوب فني متميز في التعبير، وطريقة صياغة أو عرض خاصة، تُظهر جميعها مستوى من الإبداع الفني. ويرتبط ذلك كله بقيم تشكل النموذج الذي نريد للمتعلم أن يحتذي به. شريطة ألا يكون ذلك النموذج خاضعا بشكل أعمى لإيديولوجية معينة، إذ أن المبالغة في تشكيل وعي الطفل حسب اختيارات معينة والإقصاء اللامعقول لخصوصيات الآخر أو نبذها واحتقارها لاعتبارات معينة قد تكون دينية أو تاريخية أو سياسية يولد مزيدا من العداوة والكراهية مما يحول عالم القراءة إلى مصدر للقلق والصراع الدائم بدلا من أن يكون مصدرا للإلهام والإبداع. وتعرض لنا بعض الدراسات أمثلة عن تلك الكتابات الأدبية الموجهة للأطفال والتي يمكن وصفها بأنها موجهة أو مقيدة بإيديولوجيا محددة (خرفي، محمد الصالح، 2015، ص 33)، حيث لا يصبح الطفل غاية مقصودة لذاته بل يتحول ضمن تلك الكتابات إلى مجرد وسيلة. ينبغي ألا يتم استغلال الطفل لاسيما أنه بحكم حداثة سنه وطراوة تكوينه "يكون دائما في موقع المتلقي الضعيف والسريع الاستجابة والفوري التجاوب ومن ثم فإن الوسائل التي تستهدفه هي التي تشكل عقله ووجدانه وتخلق وتنمي فيه أنماط السلوك وأساليب الحياة والاتجاهات المستقبلية في كل مجال". (إسماعيل الحاج موسى، 1999، ص 43). ينبغي أن ننظر للطفل رغم انتمائه لوسط اجتماعي معين على أنه ذاتا مستقلة لها من القدرات ما يؤهلها لتشكيل ذاتها بمساعدة الوسط الاجتماعي والتربوي الذي لا يعدو أن يكون عاملا مساعدا في العملية باعتباره مرجعية ثقافية. مما يعني أن حق الفرد له أسبقية على حق المجتمع في تشكيل الهوية الفردية. وذلك لأن الهوية الشخصية هي بناء توجهه الإرادة الحرة. إنها الطريقة التي يعبر كل فرد عن شروط وجوده النفسية والاجتماعية وعن حريته. وبأسلوب آخر إنها الطريقة التي يتمثل بها الفرد ثقافته الطريقة التي يفترض بها كل شخص ثقافته، "إننا لثقافة التي تتجراً

على فرض نفسها لمتعد ثقافة، بل هي سياسة ملزمة" (Anne Lalanne, 2009, P.21) أو مشروع ايديولوجي محدد المعالم.

يُظهر هذا التحليل أنه يمكن للقصّة القصيرة، خلال مراحل التعلم لدى الأطفال، أن تلعب دورا مهما في التقارب الثقافي بين الشعوب فتكشل لديه وعيا ثقافيا بمحيطه الاجتماعي بل وبالمحيط الإنساني وبالتالي عاملا مهما في التثاقف وهو ما تأخذه برامج التعليم خاصة الأجنبية منها بعين الاعتبار. إن التواصل الثقافي في عالمنا اليوم يبدأ في مرحلة متقدمة من حياة الطفل، ولكي يحصل ذلك التواصل بطريقة سلسلة ودون أن يخلق لدى المتعلم تشويشا أو أي اضطراب أو أي توجيه سلبي من شأنه أن يكون صورا نمطية تخص مجتمعات أخرى، وجب أن يراعي البرنامج التعليمي خصوصيات المتعلم الثقافية، مما يعني منطقيًا معايير ينبغي مراعاتها في النص الأدبي المبرمج للطفل أو الذي تتاح له مطالعته كالقصّة القصيرة، وكلما زاد مجال الاختلاف بين نسقين ثقافيين تتم الترجمة بينهما كلما كانت المهمة أصعب أمام المترجم فيما يخص النصوص الأجنبية وأمام المدرس أيضا، إذ يتوقف على هذا الأخير معرفة الإمكانيات المتاحة لتبنيّة النص وتوظيفه بما يخدم سعي المجتمعات البشرية نحو التقارب والتعايش والتعاون في ظل الاختلاف وهذا هو المسعى الأخلاقي والإنساني الذي ينبغي أن تتشده المعرفة.

ومن أجل تسهيل عملية التثاقف في هذا السياق، فإن من الأولويات هو "أن نعثر على ما هو غريب فيما هو مألوف أو على ما هو أجنبي فيما هو محلي". (Matthias Altmannsberger, 2002 P.9) ويعني ذلك أن نقارب أكثر بين النصين دون أن ننتزع من المصدر مضمونه أو نشوّه، وأن يكون الاختلاف باعثًا على الاكتشاف والتعارف بدل التنافر. إن النص الأدبي القصير ليمثل قفزة جديدة في اكتشاف الذات من خلال الآخر، إنه سيسمح للمدرس ثم للمتعلم بتقصي التأثيرات الأجنبية في اللغة الأم أي بتأثير الثقافة الأجنبية على الثقافة المحلية أو الوطنية وسيؤكد تدريجيا أنه "من السذاجة القول بأن بعض القيم أو السلوكيات التي تخص مجتمعا محددًا دون غيره قد بلغت من التميز درجة تحيلها إلى نموذج مثالي لا يضاهاه". (Matthias Altmannsberger, 2002, P.10)

ويمكن للمرء أيضًا أن يدرك أن كل شيء يستند دائمًا إلى الملاحظة المنهجية، فضمن ثقافات مختلفة نجد مثلا أن "عبادة الشمس والقمر بشكل مختلف، ونجد لكلمتي "الشرق" و"الغرب" معان مختلفة وكذا

نجد التباين بين كلمتي "اليسار" و"اليمين" حتى داخل أوروبا نفسها، ونتيجة لذلك يتأكد للمرء أن نسبة هذه الحقائق أمر طبيعي. (Matthias Altmannsberger, 2002, P.10)

بالإضافة إلى ذلك، لا يراد بالثقافة هنا أن تحصل بين الثقافات مبادلة ما هو مألوف مع ما هو أجنبي، أو خلط بين طرفين. بل يراد بذلك إثراء المعرفة وإذكاء الروح النقدية لدى الطفل استنادا إلى معارفه السابقة. إن تشكيل الوعي الثقافي تدريجيا لدى الأطفال بعالمهم له انعكاسات على حياتهم ومستقبلهم. وإذا حصل ذلك وفق معايير بيداغوجية وأخلاقية بالنسبة للأطفال والمراهقين والشباب فمن شأن ذلك أن يكون له أثرا إيجابيا على مختلف المجالات خاصة النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

إن الهدف الذي يجب أن يضعه المدرس والمربي نصب عينيه هو تشكيل مواقف إيجابية لدى الناشئة اتجاه ثقافات مختلفة واحترام خصوصياتها. وتحييد كل اضطراب أو توتر يمكن أن ينشأ اتجاه الآخر. وفي ظل منهج ديداكتيكي علمي دقيق يراعي القيم الإنسانية العادلة والمشاركة بين بني البشر يمكن أن يحصل التواصل الثقافي الناجح على مستويات عدة. وبالتالي سنتجنب ولو نسبيا سوء التفاهم الذي يمكن أن تخلقه مثل تلك النصوص عن قصد أو غير قصد من كاتبها.

2- قائمة المراجع:

-خرفي، محمد الصالح. (2015). أدب الأطفال في الجزائر مجموعة دراسات نقدية. الطبعة الأولى. موفم للنشر. الجزائر.

المجلات بالعربية:

-الحاج موسى، إسماعيل، التعاون الثقافي، المجلة العربية للثقافة، عدد28، 1999.

المراجع باللغات الأجنبية:

-Anne Lalanne. La Philosophie à l'école. (2009). L'Harmattan. Paris.

Matthias Altmannsberger. (2002). Interkulturelles Lernen mit Hilfe von Kinderliteratur. Grin Verlag. Norderstedt. Deutschland.

- Howard Sage.(1987).Incorporating Literature in ESL Instruction.Prentice-Hall,Inc. USA.
- Cinzia Medaglia. (2003).Kurzgeschichten Einstieg in die Literatur durch die Kurzgeschichte.Cideb.Italien.
- Gérard Vigne. (1979).Lire : du texte au sens. Clé international, Paris.
- Miss Sara Cone Bryant. (1926).Comment Raconter des Histoires a nos Enfants.Fernand Nathan. Paris.
- Bernadette Bideau. (2007).Interculturelles Lernen im Fremdsprachenunterricht, Grin Verlag . Norderstedt. Deutschland.
- Christiane Achour, Amina Bekkat. (2019).Le Texte Littéraire Outils de Lecture. Editions Barzakh. Alger.